المرأة في مصر

على مبر المصور

عن محاضرة للسيرة ايمي مبر

نقلها عادل الغضبان

يخيل اليّ ان تاريخ المرأة المصرية هو من أجل التواريخ التي وصلت الينا فيض بشتى أسباب الشجاعة والثقة . ففي مصر لم تكن المرأة موضع استعباد منظم على نقيض ما كانت عليه في بعض بلاد هذا الشرق الجميل الذي كثيراً ما أتهم انهُ يسيء المرأة السعودية ولئن اضطهدت المرأة احياناً في مصر إنّ ذلك كان عرضاً بثت عليه بواعث أجنبية

ليس تاريخ الامم الاّ مجموعة اخلاق كل أمة وعاداتها فالمصري ذكي بطبعه شريف في معاملته نشيط في عمله لا يحفل بما بين الرجل والمرأة من فوارق جسمانية ولا يتخذها ذريعة لاحتقار شريكة حياته وانهُ لعلى حق . ونحن ان شئنا معرفة هذه الفوارق فهاك ما تنص عليه الموسوعة الطبية قالت : الرجل عادة اطول قامة من المرأة وهيكله العظمي أثقل وزناً وقلبه أكبر حجماً ورئتاه أقدر عملاً ودمه اغنى تلاقيف ودمه يختلف عن دمها في مقداره وتركيبه وعلى الجملة فالرجل اقوى من المرأة . ونحن على اتفاق في هذا مع القواعد الطبية ولا اخالكنّ يا حضرات الآنسات الاّ موافقات على ان ما تصبو اليه المرأة والنادر لا يقاس عليه ليس التشبه بالرجل في ساحات النزال او حلقات الملاكمة او ميادين الفروسية وعلى ان الفوارق بينها وبين الرجل قد توجد بين الرجل والرجل دون ان يكون لها دلالة معلومة فكم رأينا من رجال ضعاف البنية مشوّهي الخلق هم في طليعة النوابغ العظام

لما منّ الله شريعة هذا الكون لم يجعل هذه الفوارق بين الرجل والمرأة أداة فوضى بل أداة توازن طبيعي واجتماعي ولما كان الرجل والمرأة قد خلقا ليتم الواحد الآخر فقد وجب ان يتوافرا على كل تعاون بينهما

اذا عرض الباحث لجميع حلقات التاريخ المصري وجد المرأة دائماً ابداً الى جانب زوجها تشاركه في حياته الى اوسع حدود هذه المشاركة ولقد كان للمرأة المصرية في الزمن القديم

شأن كبير كعامل اجتماعي حتى ان اولادها كانوا ينتسبون اليها وحتى كان لها في الاسر المالكة سلطة التحريم والتحليل وهل من شهادة اعظم أثراً وأقوى دلالة على مجد المرأة من تلك الصور البديعة التي نقشت على نواويس الفراعنة والتي تدل بجلاء ووضوح على الشرف الذي كانت تحف به . ففي معظم هذه النقوش مثلت المرأة جالسة الى جانب زوجها وقد زانتها جمالاً بحالي الزينة وأنواع الحلي وخلال الاكاليل وربيق الجواهر وضمخات الورد وهي تتقبل من اولادها ورعاياها شارات الولاء وتشترك في تقديم الذبائح والقرابين للآلهة وتقوم بالطقوس الدينية التي ترفع للآلهات حتى اذا كانت الاسرة الرابعة قامت المرأة بالشعائر الدينية التي ترفع للآلهة .

من مبنا ايتها الآلسات لم تسحرها صورة الملكة تيتي فان سحرها في قسامها وزينتها لا كفاء له وليست زوجة أمنوفيس الرابع هي الوحيدة في ذلك السحر والتأثير فحوالي سنة ٢٤٧٠ قبل المسيح كانت تيتوريس هي الملكة على مصر ثم ملكت في سنة ٢٠٠٠ قبل المسيح سكيموفريس خلفة أخاها امنمحت الرابع ومنذ سنة ١٤٩٣ الى سنة ١٤٨٠ قبل المسيح كانت الحاكمة على مصر حتشبسوت يشاركها في الحكم تحوتميس الثالث زوجها وأخوها ومما يؤثر عن هذه الفرعونة الجليلة الزكية انها كانت تميل الى تشجيع المتفنين والعلماء فضلاً عما اخذت به نفسها من تحسين معايش رعاياها ويقال ان ملوكة بنت زبك هي التي ملكت مصر بعد تلك الحادثة المشهورة من غرق المصريين في البحر الاحمر وأعتقد انكن تذكرن جيداً فصول التوراة التي تخبرنا بان فرعون مصر ووزراءه وجيشه هلكوا في البحر وهم يطاردون البرانيين . وقيل ان النساء اجتمعن وملكن عليهن من بلغت منها ١٦٠ سنة فكانت ملوكة . واول عمل أتت به هذه العجوز انها أمرت بتشييد سور يمتد من شمال البلاد الى جنوبها اي من العريش الى اصوان تماشيه الأقنية وتقوم به مصالح للذخيرة وقد علقت أجراس الخطر تدق عند اول إشارة وماتت ملوكة بنت زبك بعد عشرين سنة من ملكها وقد اخذ الحزن على موتها من رعاياها كل مأخذ فبكوها سنة من البكاء

اما من تشرفها الاساطير باسم بدور المصرية فيغلب على ظني انها لم تكن الا ساحرة اكتسبت نفوذها من صداقة المجوس لها . واما زوجة فوطيفار التي شغفت بيوسف فيعرفها مؤرخو العرب باسم زليخة وهي بنت ملك من ملوك الرعاة تزوجها كثير جليس فرعون حتى كانت ريتوقريت زوجة الكاهن الاكبر پيلوزيريس وهو أعظم كهنة طود الحمة شأناً وكلهم راقدون في مدافن هرموبوليس وهو الذي وصف زوجته فقال : « حبيبته هي ملكة السحر عذبة اللفظ نافذة المشورة كل ما عرض على شفتيها يشبه أعمال « ماعت » هي المرأة الكاملة الوافرة النعم على بلدها المبسوطة اليد الفائقة الخير المرددة ما يستحب الجامحة شفتاها عن المنكر الكبيرة في حبها ».

اما كليوپطرة فاذا لم يخني المقال فانها اول طبعة للمرأة المشئومة في التاريخ ، للمرأة التي تمثلها خير تمثيل

على لوحة الخياطة جريتا جاربو ومارلين ديتريش وهي التي لا تترك لمن أحبها مخرجاً سوى الموت على انهُ يجب أن لا ينسى الناس أشياءهم فملكة مصر اليونانية الرومانية كان يشغل قلبها حب وطنها وهو الحب الذي لم يملأ أي حب آخر وليس أحق من الآنسة دوريه تورن أو سليم بك حسن أو سامي جيرة أولئك العلماء الاعلام في الآثار المصرية ان تدعوهم الى محاضر تكلّم عن أولئك النساء العجيبات اللواتي زخر بهنَّ تاريخ مصر القديم ووصل الينا محبباً عزيزاً ولقد هيّأت الى ازدهار حرية المرأة وشخصيتها قرون عدّة من الحضارة وأي حضارة تهي الآن منهة الخاطر ترغب في حياة روحية كاملة تنتظرها وتستحقها وهي التي عبر عنها يسوع الناصري وفضلها على مشاغل الدنيا يوم زار مرتا ومريم زيارة حفّها البساطة ووسمت احتفال أعظم هيئة قدسية كانت فيها أخت مرثا المثل الحيّ على الحياة الروحية وتبعها في ذلك خليفات قرنيني وهتشبسوت وكليوبطرة فأجبن دعاء المسيح وملأن قصر الحياة قداسة. وحسبنا أن نشير الى بعضهن من مثل القديسة كاترين الجميلة العالمة التي استشهدت حبًّا للدين الجديد والقديسة سانكليتيك الشهيدة والقديسة تيكلا رئيسة دير يضم على ٦٠ راهبة في الطيبه والقديسة بازيليس زوجة القديس جوليان والقديسة دوروثي العذراء بالاسكندرية والقديسة كومتا الشهيدة والقديسة أبولوني والقديسة افروزين والقديسة أسطاسي والقديسة افرازي والقديسة مريم المصرية والقديسة تومائيد الشهيدة والقديسة تيودورا والقديسة تيودوزي والقديسة مور زوجة القديس تيوتاؤس والقديسة دميانة التي دفنت مع الاربعين عذراء اللواتي حكم عليهنَّ معها وضربت أعناقهنَّ في ضواحي بلقاس وحيثما وجد الهدوء والسكينة شيدت الأديرة للرجال والنساء على السواء فازدهرت المسيحية في أرض القراعنة وكان ازدهار الكنيسة فيها من أسباب مجدها حتى جاء الاسلام واستنقذ العرب وتقلوه الى مصر مشفوعاً بعاداتهم وتقاليدهم ومنها هذا الحجاب الذي أصبح للمرأة رمزاً على حياة منفردة منبتة عن حياة الرجل فأخذ المصريون عنهم لأول وهلة كل ما جاؤوا به شأنهم في ذلك شأن جميع البلاد التي فتحها المسلمون الا انهم كلما ازدادوا تغلغلاً بروح الدين بذوا التقاليد الاجنبية ورجعوا الى تقاليدهم التي ورثوها عن الاجداد

وهنا أيضاً تمتاز المرأة المصرية فهذه السيدة نفيسة التي حجّت الى مكة ثلاثين مرة وتوفيت وعاشت في تقشف وزهد كان مدعاة عجب معاصريها الأولى عرفوا قداستها فجاؤوا اليها من كل حدب وصوب يلتمسون بركتها حتى ان الامام الشافعي نفسه زارها وطلب اليها وهو متصرف أن تصلي من أجله ولما أدركتهُ الوفاة دعيت السيدة نفيسة الى الصلاة على جثمانه والسيدة نفيسة دفنت في منزلها في درب السباع سنة ٢٠٨ هجرية أما ابنة أختها سكينة فقد طلبت على غرار حافضيلة وهدى حتى أن جماعة المؤمنين لما توفاها الله صمموا على أن يدفنوها بالقرب من خالها وقد فعلوا

وهذه سكينة المشغفة بالأدب المتلقة دارها بالادباء والمفتنين في عصرها وهم الالى سحر هم دلالها وعفافها وهفت فيهم روح الوحي والالهام فتسابقوا في مضمار البلاغة وكانت هي تستمع اليهم من وراء ستار

كذلك كانت عائشة النبوية بنت جعفر الصادق التي توفيت سنة ١٤٥ هجرية من قديمات الاسلام يحج الى قبرها في الجامع الذي شيد على اسمها في سفح القلعة كثير من الناس

وكانت ست الملك بنت العزيز بالله مشهورة بالذكاء والحكمة حتى ان الشعب المصري لما ثار في وجه اخيها الحاكم بأمر الله توجه اليها لانتخاب ملك آخر فأشارت بالملك الشاب علي ابن الحاكم وكان عمره اذ ذاك اربعة عشر عاماً فملكته وحكمت باسمه مدة اربع سنوات استطاعت في خلالها ان تجري العدل في عمراه وان تكتسب بذلك حب مواطنيها وماتت سنة ٤١٥ هجرية

من هؤلاء النساء ايضاً كذلك حدقة الجارية في قصر الملك الناصر ابن قلاوون وكانت على جانب كبير من الذكاء وحب الخير فقد بنت عدداً كبيراً من التكايا والسبل والمدارس فضلاً عن جامع في الخليج الذي دفنت فيه سنة ٧٣٧ هجرية. وبركة خاوند ام السلطان الاشرف وكانت تقية سخية يلجأ اليها كل بائس ويعتمد عليها كل عليل وقد بنت في سنة ٧٧٠ هجرية عند عودتها من الحج باب زويلة في سفح القلعة وهي المدرسة الكبيرة التي يزار فيها قبرها

اما شجرة الدر زوجة السلطان صلاح الدين فقد يلزمني محاضرة برأسها للتحدث عنها وعن ملكها على مصر الاسلامية مدة ثمانين يوماً فقد كانت سيدة جبلة الملامح ذكية الفؤاد سياسية ثاقبة النظر وطنية تقدح مجالي حبها في القلوب الشرر الذي تقدحه في السماء الشهب الثاقبة

على اننا اذا وجهنا النظر الى القريب من العصور رأينا زينب هانم افندي أصغر بنات محمد علي تبني اكثر من ١٤ جامعاً وتنشىء للفقراء والراقصي الذكر الأوقاف والتكايا وها هي عائشة التيمورية ابنة اسمعيل باشا تيمور الكاتبة الشاعرة التي عنى والدها بان يهيىء لها ثقافة عالية وتربية رفيعة فنشأت شاعرة مجيدة لها آثار حسان في العربية والفارسية والتركية وبينما كان العالم الادبي يترقب منها المزيد اذا بالقدر القاسي يختسها في ابنتها توحيدة ولما تبلغ الثامنة عشرة من عمرها فجزعت عليها امها حزناً شديداً مدة سبع سنوات تجردت في خلالها من كل شيء الا من بكائها ونواحها حتى قرحت اجفانها ودميت عيناها ولولا لطف الله والطب لذهب بصرها واول من قرظ ديوان عائشة شاعرة اخرى هي وردة اليازجي الشاعرة الرقيقة سليلة الاسرة اليازجية التي تعهدت اللغة العربية وعملت على نشرها وازدهارها

لئن ذكرت لكن طائفة من الاسماء يستحق كل واحد منها درساً مستفيضاً اني لم اقصد الا ان اتمكن ان مصر في كل عصر وفي كل حالة لم تخل من نساء شيرفن بلادهن ولولا كثرتهن لتعددت لكن اسماءهن فتهن ينشأن سلسلة بطلات متصلة الحلقات منذ فجر التاريخ قد جددت

فيها الحماسة التديمة التي نراها اليوم قد انبعثت في الالباب الاولية الحديثة في اولئك الصناديد الذين نقلوا اللهب الرمزي من آتينه الى برلين كما تناقلت المرأة في مختلف العصور رسالتها العالية التي تتناقلها نحن اليوم متبعات مبادئها القديمة وعمليات شأن أنوثتها الكاملة

المعروف ان الروح تتغلب دائماً على المادة فالقوة الوحشية ان تغلبت على القوى الادبية والفكرية فلوقت قصير والمرأة في هذا الميدان كفء للرجل فهل عليها ان تحذو حذو الرجل في توسيع مداركها والاهتمام بالثقافة والعمل ؟ قد يختشى في اوربا وامريكا ان يبعث لشاط المرأة الى تنافس الجنسين. اما علماء الاجتماع في مصر فلا نخالهم يعبأون بهذا الامر فان مناخ مصر مدعاة الى الكسل والى تجنب كل مجازفة او جهد وهذا ما على المرأة المصرية ان تحاربه وتتغلب عليه

النفس مخلوق حي يحتاج كالجسم الى التغذية والتمرين والنمو وليس الواجب مقتصراً على لزوم حالة راهنة بل على الرفع والتقدم . فعلى المرأة ان ترهف احساسها وتقوي ارادتها وتربي ذكاءها وتعود الثابرة دون اخلال بأنوثتها. ان هذا العصر كثير المطالب فيجب ان تتفق مطامح المرأة وهذه المطالب وكل من لا تستسلم الا الى الدلال والكسل فبشرها بمثل ذريع فالمرأة العصرية يجب ان تأنف من ان تكون حيواناً او اداة عبث وهي التي تدعي بمساواتها بالرجل بل عليها ان تكون شريكة الرجل تشاركه في السراء والضراء وتطمح الى نفس الواجبات والحقوق المخولة له وهذا ما يشيد صرح سعادتها وليست سعادتها الا ان تعيش صحيحة الفكر والجسم ساعية قدماً في ميدان الحياة العقلية مدخرة ما استطاعت اليه من ثروة فكرية وأدبية

ليس بخاف عليكن يا حضرات الآنسات اثر السيادة التركية في مصر الحديثة وما كان للعلائق الودية بين كبار البلدين من توطيد ذلك الاثر حتى كانت العادة عند امرائنا وامرائنا ان يقضوا فصلاً طويلاً من السنة في بلاط الخليفة السلطان وهذا ما يفسر لنا لماذا قضت الاميرة فاطمة فاضل عهد شبابها الاول في القسطنطينية فتألق جمالها وسطع ذكاؤها حتى شغف بها الامير مراد ابن اخي السلطان عبد العزيز وود لو يتزوج منها لولا ان هذا الزواج كان مخالفاً لارادة الباب العالي فزوجها من خليل باشا شريف وارسله في بعثة خاصة الى اوربا فلفتت الاميرة اليها الانظار واختلف الى مجلسها كبار القوم للمجيئين بها وكان من رواد بهوها بسمارك ودزرائيلي وناپليون . ولما عادت الى مصر لتسكن بها سبقتها اليها شهرتها فأحاطها الخديو عباس حلمي ووزراؤه وعثلو الدول الاجنبية في مصر وكل عظيم في عالم الفكر والفن والسياسة بفيض مظاهر الاعجاب والاحترام . اما هي فكانت تختلط بجماعة خاصة من اصدقائها المخلصين الذين وهبتهم ثقتها وقدروا فيها المرأة الوطنية وكان من بين هؤلاء المصلح الكبير الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ونخبي باشا زغلول الرجل القانوني والشيخ عبد الكريم سلمان وعلي

فري بك المستشار بالاستئناف المختلط وفارس نمر باشا الذي أدلى اليّ باخبار الاميرة ناظلي وحسن حازم باشا كبير التشريفات في البلاط ولاسيما قاسم أمين وسعد زغلول في هذه الدائرة من الاصدقاء الذين احاطوا تلك السيدة العظيمة بشتى معارفهم تحت الفكرة النسوية وما عتمت ان آتت ثمارها فنشر قاسم امين كتابين «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» وهما الكتابان اللذان عالج فيهما ترقي المرأة المصرية فلم يستقبلا بحماسة والغريب ان النساء انفسهن لم يكنّ اقلّ عداء للمؤلف من غيرهن ولكن امثال هؤلاء يجب ألا يحفل بهن على أن هذين الكتابين ما لبثا ان عني بهما نخبة رجال مصر حتى ممن كان بادأهما العداء من مثل طلعت حرب باشا

اما الاميرة ناظلي فقد استطاعت ان تذوق قبل وفاتها ثمر ما ساعدت على غرسه من انصاف المرأة في تلك الطبقة العالية التي بسطت فيها ظلال تلك الشجرة في تلك الطبقة التي كثيراً ما عُرفت الأميرة واطلقت عليها لقب الاميرة الثرية الاطوار ومع ذلك فقد كانت حريتها مثالاً يؤثر فطرحت بنات مصطفى باشا فهمي الحجاب وحاولت ان تتأثر بهن زوجة سرهنك باشا وزوجة الدكتور محمود صدقي باشا ولكن الذي بعث على اعتناق هذه الحرية الحديثة هو سعد زغلول باشا لما دعا زوجته الى مشاطرته حياته السياسية فحمل ما كان في الحجبان وحف سعداً جماعة الاعوان والانصار فتفخروا في بوته وافتتحت أبهاء الاسر ولا سيما بيو حرم محمود بك رياض وبيو حرم سلطان باشا وفيه شوهدت تلك الفتاة الجميلة ذات العينين السوداوين هدى سلطان التي كتب لها ان تضطلع بالارث الذي تركتهُ لها الاميرة ناظلي

ولعل السيدة هدى هانم شعراوي تنشر يوماً مذكراتها عن ذلك العهد عهد الشباب الذي هيأها لهذه المهمة العظيمة التي تضطلع بها اليوم والمعروف انها زفت في الثالثة عشرة من عمرها الى ذلك الرجل العظيم والوطني الهمام محمد شعراوي باشا. ومما لاشك فيه ان الحياة مع رجل ذكي حكيم قد صقلت نفسها فما لبثت ان ظهرت مواهبها دون الجنوح الى الزهو والخيلاء والانانية وهي السرية الثرية بل تطلعت دائماً الى المثال الاعلى الى المتع الفكرية فدرست وتثقفت وشغفت بالادب والفن ولستا ندري اتهذبت هدى هانم من محيطها النسوي ام ان حنانها وعطفها على قضية المرأة لا يقدح شرره الا عند رؤيتها كآبة غيرها من النساء . فبعد موت زوجها تخصصت بتحرير المرأة فألفت لذلك لجنة اصلية هي الاتحاد النسائي وتفرع منهُ في السنوات الاخيرة لجنة فرعية باسم فتيات الاتحاد النسائي ثم شيدت مدرسة وافتتحت مشغلاً وستوصفاً وبصنماً للخزف واعتمت ان تزيد يوماً فيوماً عدد جيشها النسائي الذي يسعى جنوده الى ذلك المثال الاعلى ولسنا الآن أهلاً لان نحكم على ما قامت به حرم شعراوي باشا في تاريخ المرأة المصرية فما يزال العهد حديثاً والدوائر التي أحاطت بأعمالها خفية عنا على أن المعروف المشهور هو فضل هذه السيدة الجليلة الذي يجل عن التعداد والحصر

ها هي المرأة في المعترك تضيق كل ما تحدوها عليه أنوثتها فالمدارس قد غصت بالطالبات المتعطشات الى العلم والعمل وسنسمع يوماً صدى نجاح بعضهن يدوي في أذن الفضاء لحذار أن ننسى الاخريات اللواتي وان كان الدهر لم يسعفهن بإباحة الصيت الا أنهن جديرات بالشكر لانهن الضحايا التي قدمت على مذبح سعادة اخواتهن . لقد اشتهرت المرأة المصرية بميلها الى الفنون وعدد من زاول صناعة الادب كبير جداً كالنجوم اللامعات في الافق وها نحن نذكر اشهرهن :

ملك ناصف كانت في طليعة العدد القليل من الفتيات اللاتي قبلن في مدارس الحكومة فلمست بين زميلاتها وتوسمت فيها آمال جسام ولكن الموت اختطفها زهرة نضرة بعد ان تزوجها عبد الستار بك الباسل ونشرت كتابها الذي وضعته باسم باحثة البادية . وأما اشهر من كتب باللغة العربية فهي النابغة مي زيادة التي خطت وكتبت بخمس لغات او ست ولكنها اجادت باللغة العربية وأشغلت ذكاءها الثاقب بالعلم والادب فأخرجت عدة كتب في موضوعات مختلفة واحد منها تناولت البحث فيه عن « ملك ناصف » فضلاً عما ينجم من مقالات في الجرائد السيارة وعما القته من محاضرات في الفلسفة والتاريخ والادب في اسلوب خاص بها هو الشعر المنثور . ومما لاشك فيه أن مي زيادة تعد في طليعة شهيرات الشرق فلقد جلبها الله بذكاء متوقد استخدمته في مسائل مختلفة سمواً وهي المتعطشة الى العلم والمعرفة الى ترفيع فكرها وعاطفتها وهي المعروفة كذلك بطيبة القلب وثقافتها النادرة . وهي وان كانت من أصل لبناني الا انها عاشت كل حياتها في مصر فهي تنسب الى مصر ولبنان على السواء . ولقد بهرت وهي في ريعان الصبا كل من حف حولها وما شرعت تكتب حتى أتتها الشهرة متقادة اليها فتكثر زوارها وتحتفل مجلسها الادبي الذي كان الحديث يتناول فيه بعدة لغات ولا ننسى ان مركز مصر الجغرافي يجعل منها بلداً مختلط السكان فلا عجب اذا رأينا كثيراً من المصريين والمصريات يجدن في التعبير بغير العربية او الفرنسية لغة السياسة التي هي أداة الرقة والاناقة (١)

ارجو اني توصلت الى اقناعكن ان المرأة المصرية وبنات لساء الشرق هي التي امتازت بالحكمة حتى في اشد ايامها حلكة وشقاء ليس المقصود بالحكمة هذه التي اظهرتها بسباع هذه المحاضرة لم يحتكن الصبر فيها بل المقصود بها مناحي الحكمة الباسرة التي تولدها مدارکنا مجتمعة فيقودها او يكبح جماحها العقل القوي الذي يجنبنا كل تفريط وافراط والذي يحدونا على ان لا نحتقر شرائط الطبيعة التي جعلت من المرأة شريكة للرجل تفيض بالدعة والايناس . وفي الختام نقدم لكل من بطلات التاريخ القديم والحديث فرائض الاجلال واحترامنا فانهن جميعاً اشتركن في تحقيق سعادة المرأة المصرية في هذا العصر . انا بعثنا اليهن اعجاباً صادراً من اعماق القلب ولئن نحول الى شكر واعتراف بالجميل فما احقهن به

(١) المقتطف : بعد ذكر باحثة البادية وهي توسطت مدام شيبر في ذكر طائفة كبيرة من المشتغلات بالآداب والفنون فلم نأت بما تقدم لضيق المقام